٣ ـ العجوزان

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

قال المحدِّث : وتبين فى العجوز (ن) أثرُ التعب فتوجع وأخذ يئنُّ كأن بعضه قد مات لوقته ... أو وقع فيه اختلالٌ جديد أو نالته ضربةُ اليوم ؛ والشيخ متى دخل فى الهرم دخل فى المعركة الفاصلة بينه وبين أيامه

ثم تأفف وتململ وقال : إن أولَ ما يظهر على من شاخ وهرم ، هو أن الطبيعة قد غيرت القانون الذى كانت تحكمه به

قال الأستاذ (م) : إن صاحبنا كان قاضياً يحكم فى المحاكم ، وأرى المحاكم قد حكمت عليه بهذه الشيخوخة (مُطَبِّقةً فيها) بعضَ المواد من قانون العقوبات ، فما خرج من المحكمة إلا إلى الحبس الثالث

فضحك (ن) وقال : قد عرفنا « الحبس البسيط » و« الحبس مع الشغل » فما هو هذا الحبس الثالث ؟

قال : هو « الحبس مع المرض » ...

قال (ن) : صدقتَ لعمرى فان آخر أجسامنا لا يكون إلا بحساب من صنعة أعمالنا ؛ وكأن كرسى الوظيفة الحكومية قد عرف أنه كرسيُّ الحكومة ، فهو يضرب الضرائب على عظام الموظفين ... أتدرى معنى قوله تعالى : « ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العُمُر » ولِمَ سماه الأرذل ؟

قلنا : فلم سماه كذلك ؟

قال : لأنه خَلْطُ الانسان بعضه ببعض ، ومسخُه من أوله إلى آخره ، فلا هو رجلٌ ولا شاب ولا طفل ، فهو أرداً وأرذل ما فى البضاعة ...

فاستضحك الأستاذ (م) وقال : أما أنا فقد كنت شيخاً حين كنت فى الثلاثين من عمرى ، وهذا هو الذى جعلنى فتًى حين بلغت السبعين

قال (ن) : كأن الحياة تصحح نفسها فيك

قال : بل أنا أكرهها أن تصحح نفسها ؛ فقد عرفتُ من قبل أن سَمَةَ الانفاق فى الشباب هى ضائقة الإفلاس فى الهرم ، وأيقنتُ أن للطبيعة (عدَّاداً) لا يخطئُ الحساب ، فاذا أنا اقتصدت عدَّت لى ، وإذا أسرفتُ عدَّت علىَّ ؛ ولن تعطينى الدنيا بعد الشباب إلا مما فى جسمى ، إذ لا يعطى الكون حياً أراد أن ينتهى منه ، فكنت أجمل نفسى كالشيخ الذى تقول له الملذات الكثيرة : لستُ لك ، ومن ثم كانت لذاتى كلها فى قيود الشريعتين : شريعة الدين وشريعة الحياة

قال : وعرفت أن ما يسميه الناس وَهَنَ الشيخوخة لا يكون من الشيخوخة ولكن من الشباب ؛ فما هو إلا عملُ الانسان فى تسميم جسمه ثلاثين أو أربعين سنة بالطعام والشراب والاغفال والارهاق والسرور والحزن واللذة والألم ؛ فكنت مع الجسم فى شبابه ليكون معى بعد شبابه ، ولم أبرح أتعاهدُه كما يتعاهد الرجلُ داره ، يزيد محاسنها ويتقى عيوبها ، ويحفظ قوتها ويتقى ضعفها ، ويجعلها دائماً باله وهمه ، وينظر فى يومها القريب لغدها البعيد ، فلا ينقطع حسابُ آخرها وإن بعُدَ هذا الآخر ، ولا يزال أبداً يحتاط لما يخشى وقوعه وإن لم يقع

قال العجوز (ن) : صدقت والله فما أفلح إلا من اغتنم الامكان ؛ وما نوع الشيخوخة إلا من نوع الشباب . وهذا الجسم الانسانى كالمدينة الكبيرة فيها (مجلسها البلدىُّ) القائم على صيانتها ونظامها وتقويتها ، ورئيس هذا المجلس الارادة ، وقانونه كله واجبات ثقيلة ، وهو كغيره من القوانين إذا لم ينفذ من الأول لم يُغن فى الآخر

قال الأستاذ (م) : وكل جهاز فى الجسم هو عضو من أعضاء ذلك (المجلس البلدى) ؛ فجهاز التنفس وجهاز الهضم والجهاز العضلى والجهاز العصبى والدورة الدموية ، هذه كلها يجب أن تترك على حريتها الطبيعية وأن تعان على سنتها ، فلا يحال بينها وبين أعمالها برشوة من لذة أو مفسدة من زينة أو مطمعة فى رفاهية أو دعوة إلى مدنية أو شىء مما يفسد حكمها أو يعطل عملها أو يضعف طبيعتها

والقاعدة فى العمر أنه إذا كان الشبابُ هو الطفولة الثانية فى براءته وطهارته ، كانت الشيخوخة هى الشباب الثانى فى قوتها ونشاطها . وما رأيت كالدين وسيلة تجعل الطفولة ممتدة بحقائقها

إلى آخر العمر فى هذا الانسان ؛ فسرُّ الطفولة إنما هو فى قوتها على حذف الفضول والزوائد من هذه الحياة ، فلا يُطغيها الغنى ، ولا يكسرها الفقر ، ولا تذلها الشهوة ، ولا يُفزعها الطمع ، ولا يهولها الاخفاق ، ولا يتعاظمها الضر ، ولا يخيفها الموت . ثم لا تملُّ وهى الصابرة ، ولا تبالغ وهى الراضية ، ولا تشك وهى الموقنة ، ولا تسرف وهى القانعة ، ولا تتبلد وهى العاملة ، ولا تجمد وهى المتجولة . ثم هى لا تكلف الانسانية إلا العطف والحب والبشاشة وطبائع الخير التى يملكها كل قلب ؛ ولا توجب شريعتها فى المعاملة إلا قاعدة الرحمة ، ولا تقرر فلسفتها للحياة إلا طهارة النظر ؛ ثم تتهكم بالدنيا أكثر مما تهتمُّ لها ، وتستغنى فيها أكثر مما تحتاج ، وتستخرج السعادة لنفسها دائماً مما أمكن ؛ قلَّ أو كثر

وبكل هذا تعمل الطفولة فى حراسة الحياة الغضة واستمرارها ونموها ؛ ولولا ذلك لما زها طفل ولا شبَّ غلام ولا رأت العيون بين هموم الدنيا ذلك الرُّواء وذلك المنظر على وجوه الأطفال يثبتان أن البراءة فى النفس أقوى من الطبيعة

وكل ذلك هو أيضاً من خصائص الدين وبه يعمل الدينُ فى تهذيب الحياة واطِّرادها على أصولها القوية السليمة ، ومتى قوى هذا الدين فى إنسان لم تكن مفاسد الدنيا إلا من وراء حدوده ، حتى كأنه فى أرض وهى فى أرض أخرى ؛ وأصبحت البراءة فى نفسه أقوى من الطبيعة

ثم قال : والعجيب أن اعتقاد المساواة بين الناس لا يتحقق أبداً بأحسن معانيه وأكملها إلا فى قلبين : قلب الطفل لأنه طفل ، وقلب المؤمن لأنه مؤمن

فقال العجوز (ن) : إنه لكما قلت ، ولعنة الله على هذه الشهوات الآدمية الباطلة . فان الشهوة الواحدة فى ألف نفس لتجعل الحقيقة الواحدة كأنها ألف حقيقة متعادية متنازعة . والطامعان فى امرأة واحدة قد تكون شهوة أحدهما هى الشهوة وهى القتل . ولعنة الله على الملحدين والحادهم ، يزرون على الأديان بأنها تكاليف وقيود وصناعة للحياة ، ثم لا يعلمون أن كل ذلك لصناعة الآلة النفسية التى تستطيع أن تحرك المختلفين حركة واحدة ، فالبليت الانسانية بشىء كما ابتليت بهذا الخلاف الذى يفتح من كل نفس على كل نفس أبواب التجنى ، ويجعل النَّفرةَ وسوء الظن أقرب إلى الطبيعة البشرية من الألفة والثقة

لقد جاء العلم بالمعجزات ولكن فيما بين الانسان والطبيعة ، وبين الانسان ومنافعه ، وبين الانسان وشهواته ؛ فهل غير الدين يجىء بالمعجزات العملية فيما بين النفس والنفس ، وبين النفس وهمومها ، وبين ما هو حق وما هو واجب ؟

* * *

قال المحدِّث : ثم نظر الىَّ العجوز (ن) وقال : صِلْ عمك يا بنى بالحديث الذى مضى ، فأين بلغنا آنفاً من أمر التجديد والمجددين وما ذا قلنا وما ذا قلت ؟ أما إن الحماقة الجديدة والرذيلة الجديدة والخطأ الجديد ، كل ذلك إن كان جديداً من صاحبه فهو قديم فى الدنيا ؛ وليس عندنا أبداً من جديد إلا اطلاق الحرية فى استعمال كل أديب حقه فى الوقاحة والجهل والخطأ والغرور والمكابرة

قال الأستاذ (م) : وليس الظاهر بما يظهر لك منه ولكن بالباطن الذى هو فيه ؛ فمستشق المجاذيب قصر من القصور فى ظاهره ولكن المجاذيب هم حقيقته لا البناء . وكل مجدد عندنا يزعم لك أنه قصر عظيم وهو فى الحقيقة مستشفى مجانين ، غير أن المجانين فيه طباع وشهوات ونزوات . وعلى هذا ما الذى يمنع الفجور المتوقح أن يسمى نفسه الأدب المكشوف ؟

قال (ن) : وإذا أنت ذهبت تعترض على هذه التسمية زعموا لك أن للفن وقاحة مقدسة .... وأن (لاأدبية) رجل الفن هى (اللا أخلاقية العالية) . . . .

قال الأستاذ (م) : فوقاحة الشهوة إذا استعلنت بين أهل الحياء وأهل الفضيلة ودعت الى مذهبها ، كانت تجديداً ما فى ذلك ريب . ولكن هذا المذهب هو أقدم ما فى الأرض إذ هو بعينه مذهب كل زوجين اجتمعا من البهائم منذ خلق الله البهائم . . .

قال (ن) : وقل مثل ذلك فى متسخِّط على الله وعلى الناس يخرج من كفره بين أهل الأديان أدباً جديداً ، وفى مغرور يتغفل الناس ، وفى لص آراء ، وفى مقلد تقليداً أعور ؛ كل واحد من هؤلاء وأشباههم مبتلى بعلة ، فمذهبه رسالة علته ؛ وأكثرهم

لا يكون ثباته على الرأى الفاسد إلا من ثبات العلة فيه

* * *

قال المحدّث : وكنتُ من المجددين فأرمضنى ذلك ، وقلت للعجوزين : إن هذا نصف الصحيح ؛ أما النصف الآخر فهو فى كثير من هؤلاء الذين يتحاولون الدفاع عن الدين والفضيلة . نعم إنهم لا يستعملون حقهم فى الوقاحة ، ولكن القروش تستعمل حقها . . .

فضحك العجوز (ن) وقال : يا بنى إن الجديد فى كل حمار هو أن يزعم أن نهيقه موسيقى ... فالحمار والنهيق والموسيقى كل ذلك لا جديد فيه ، ولكن التسمية وحدها هى الجديدة . ولو كان البرهان فى حلق الحمار لصح هذا الجديد ، غير أن التصديق والتكذيب هنا فى آذان الموسيقيين لا فى حلق حمارنا المحترم . . .

قال (م) : وزعموا أن رجلا نصب فخا لصيد العصافير ، فجاء عصفور فنظر من هذا الفخ الى شىء جديد فقال : يا هذا ! مالك مطمورا فى التراب ؟ قال الفخ : ذلك من التواضع لخلق الله . قال : فمَّ كان انحناؤك ؟ قال الفخ : ذلك من طول عبادتى لله . قال : فما هذه الحبة عندك ؟ قال الفخ : أعددتها لطيور الله الصائمين يفطرون عليها . قال العصفور : فتُبيحها لى ؟ قال : نعم

فتقدم المسكين اليها ، فلما التقطها وقع الفخ فى عنقه ، فقال وهو يختنق : إن كان العُبّاد يخنقون مثل هذا الخنق فقد خلق ابليس جديد

قال (ن) : فالحقيقة أن إبليس هو الذى تجدد ليصلح لزمن الآلات والمخترعات والعلوم والفنون وعصر السرعة والتحول . وما دام الرقى مطردا وهذا العقل الانسانى لا يقف عند غاية فى تسخير الطبيعة ، فسينتهى الأمر بتسخير إبليس نفسه مع الطبيعة .. لاستخراج كل ما فيه من الشر

قال (م) : ولكن العجب من ابليس هذا . أتراه انقلب أوربيًا للأوربيين ؟ وإلا فما بالُه يخرج فيهم مجددين من جبابرة العقل والخيال ثم لا يؤتينا نحن إلا مجددين من جبابرة التقليد والحماقة ؟

قال المحدث : فقلت لهما : أيها العجوزان القديمان ، سأنشر قولكما هذا ليقرأه المجددون

قال الأستاذ (م) : وانشر يابنى أن الربيع صاحب الامام الشافعى مرّ يوماً فى أزقة مصر فنثرت على رأسه إجانة[1] مملوءة رمادا ، فنزل عن دابته وأخذ ينفض ثيابه ورأسه فقيل له : ألا تزجرهم ؟ قال : من استحق النار وصولح بالرماد فليس له أن يغضب . . .

* * *

ثم قال محدثنا : واستولى علىّ العجوزان ورأيت قولهما يعلو قولى وكنت فى السابعة والعشرين وهى سن الجِدَّة العقلية فما حسبتُنى معهما إلا ثُلث عجوز . . . . مما أترا على ، وانقلبت لا أرى فى المجددين الا كل سقيم فاسد ، واعتبرتُ كل واحد منهم بعلته ، فاذا القول ماقال الشيخان وإذا تحت كل رأى مريض مرضٌ ، ووراء كل اتجاه ابرة مغناطيسية طرفها إلى الشيطان ...

وفرغنا من هذا فقلت للشيخين : لقد حان وقت نزولكما من بين الغيوم أيها الفيلسوفان ؛ أما كنتما فى سنة ١٨٩٥ من الجنس البشرى . . ؟

(لها بقية — طنطا)

مصطفى صادق الرافعى

(١) قصعة

ظهر حديثاً كتاب :

الثورة الوهابية

تأليف الأستاذ عبد الله على القصيمى النجدى

أروع الثورات . المثل الأعلى للبطولة العربية الاسلامية — بحث تحليلى للمذهب الوهابى . العقيدة السليمة — الملك بن سعود . نبوغ الصحراء — النجديون نموذج المؤمن الكامل — وثيقة دينية لأحد أمراء آل سعود . آراء الشيخ المراغى فى تجديد الاسلام ونقدها الخ . الخ ... ص ١٦٠ من القطع الكبيرة الثمن ٥ قروش

ويطلب من سائر المكاتب ، ويخاطب بيع الجملة الشيخ عبد الحليم سلام المكنى بالصادقية — بجوار الأزهر والمكتبة التجارية بشارع محمد على بمصر